

كامل كيلاني



أساطير العالم

القصر الهندي



NC

Ch
398.2

كليل
ف

اهداءات ٢٠٠٢

أ/ رشاد كامل الزيلاوى

القاهرة

كامل كيراني

أساطير العالم

القصر الهندي

الطبعة الثانية "عشرة"



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كوريش النيل - القاهرة ج ٢ ع

الفصل الأول

ساكن الذوكة

١ - أُمْنِيَّةُ الْمَلِكِ

كَانَ لِمَلِكِ « بَنَارِسَ » أُمْنِيَّةٌ وَاحِدَةٌ ، يَسْعَى إِلَى تَحْقِيقِهَا جَاهِدًا (مُجْتَهِدًا) ، وَلَا يَهْنَأُ لَهُ بَالٌ أَوْ يَظْفَرُ بِإِذْرَاكِهَا ، وَلَا يَرْتَاحُ قَلْبُهُ حَتَّى يَفُوزَ بِهَا . وَقَدْ شَغَلَتْهُ هَذِهِ الْأُمْنِيَّةُ الْجَمِيلَةُ زَمَنًا طَوِيلًا ؛ فَأَصْبَحَتْ تُورِّقُهُ (تُسَهِّرُهُ) ، وَتَقْطَعُ عَلَيْهِ نَوْمَهُ فِي اللَّيْلِ ، وَتَشْغَلُهُ وَتُهَمُّ خَاطِرَهُ (تَمَلُّ قَلْبَهُ غَمًّا وَهَمًّا فِي النَّهَارِ) .

أَمَّا هَذِهِ الْأُمْنِيَّةُ الْعَزِيزَةُ الْمَالِ ، الَّتِي فَكَّرَ فِيهَا مَلِكُ « بَنَارِسَ » وَقَدَّرَ ، ثُمَّ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ، فَهِيَ أَنْ يُشِيدَ (يَبْنِيَ) لِنَفْسِهِ قَصْرًا مُبْتَدَعًا ، لَمْ يَسْبِقْهُ - إِلَى بِنَاءِ مِثْلِهِ - أَحَدٌ مِنْ مُلُوكِ الْهِنْدِ قَاطِبَةً .

٢ - نَمُودَجُ الْقَصْرِ

وَكَانَتْ هَذِهِ الْأُمْنِيَّةُ - فِي الْحَقِيقَةِ - صَعْبَةً الْإِذْرَاكِ ، بَعِيدَةً التَّحْقِيقِ ؛ لِأَنَّ مُلُوكَ الْهِنْدِ قَدْ تَفَنَّنُوا فِي بِنَاءِ الْقُصُورِ ، وَبَذَلُوا

وَأَتَّقُوا - فِي تَشْيِيدِهَا - أَمْوَالًا كَثِيرَةً لَا تُحْصَى ، وَتَأْتَقُوا (اسْتَعْمَلُوا
 الْإِتْقَانَ) فِي هَنْدَسَتِهَا ، وَتَقَنُّوا فِي زَخْرَفَتِهَا ، مَا شَاءَ لَهُمْ الْإِبْدَاعُ
 وَالْفَنُّ ، وَلَمْ يَدْعُوا لِأَحَدٍ - مِنْ بَعْدِهِمْ - مَجَالًا لِلتَّائِقِ وَالِافْتِنَانِ .
 وَقَدْ رَأَى مَلِكُ « بَنَارِسَ » أَنَّ كُلَّ جُهِدٍ يَبْذُلُهُ فِي رِفْعَةِ
 الْبِنَاءِ وَاتِّسَاعِهِ وَتَنْسِيقِهِ ، لَنْ يُشْمِرَ ، وَلَنْ يُغْنِيَ أَقْلَ غِنَاءٍ (لَنْ يَأْتِيَ
 بَأَى فَائِدَةٍ) . وَأَيُّقِنَ أَنَّهُ مَهْمَا يَبْذُلُ مِنْ جُهِدٍ وَمَالٍ ، فَلَنْ
 يَبْلُغَ شَيْئًا مِمَّا يَرْوُمُ وَيَطْلُبُ ، وَلَنْ يُحَقِّقَ بَعْضَ مَا تَصْبُو وَتَمِيلُ
 إِلَيْهِ نَفْسُهُ .

ثُمَّ اهْتَدَى - بَعْدَ تَفْكِيرٍ طَوِيلٍ - إِلَى طَرِيقَةٍ فَذَّةٍ (وَحِيدَةٍ
 مُنْفَرِدَةٍ) تُظْفِرُهُ بِأَمْنِيَّتِهِ ، وَتُنِيلُهُ رَغْبَتَهُ ، بِأَيْسَرِ تَقَقُّةٍ .
 وَأَقْلَ مَالٍ .

فَمَثَّلَ (صَوَّرَ) - لِهَذَا الْقَصْرِ - نُمُودَجًا مُبْتَدَعًا لَمْ يَسْبِقْهُ إِلَيْهِ
 أَحَدٌ مِنْ مُلُوكِ الْهِنْدِ قَاطِبَةً ، وَرَأَى أَنْ يُشِيدَهُ عَلَى عَمُودٍ وَاحِدٍ .
 وَهَذَا - كَمَا تَرَى - مِثَالٌ لَمْ يُفَكِّرْ فِيهِ أَحَدٌ قَبْلَهُ .
 وَلَسْتُ أَعْرِفُ : مَا الَّذِي أَوْحَى إِلَيْهِ فِكْرَةَ هَذَا الْقَصْرِ الْعَجِيبِ

الَّذِي يُشَبِّهُ - فِي شَكْلِهِ وَهَيْئَتِهِ - بُرْجَ الْحَمَامِ ؟ وَلَكِنِّي
أَعْرِفُ أَنَّهُ قَدْ وَفَّقَ - عَلَى أَيْ حَالٍ - فِي الْإِهْتِدَاءِ إِلَى مِثَالِ جَدِيدِ
لَمْ يَسْبِقْهُ إِلَيْهِ كَأَنَّ كَانَ .

٣ - الْحَطَّابُونَ فِي حَضْرَةِ الْمَلِكِ

ثُمَّ نَادَى مَلِكُ « بَنَارِسَ » كَبِيرَ وُزَرَائِهِ ، وَقَالَ لَهُ :
« أَخْضِرْهُ إِلَى أَقْدَرِ الْحَطَّائِينَ وَأَبْرَعَهُمْ ، مِنْ كُلِّ قَاصٍ وَدَانٍ ،
وَاجْمَعْهُمْ مِنْ بَعِيدٍ أَوْ قَرِيبٍ . وَمُرَّهُمْ أَنْ يُحْضِرُوا إِلَى مَدِينَتِي أَضْخَمَ
شَجَرَةٍ أَنْبَتَتْهَا الْغَابَةُ ، عَلَى أَنْ يَتِمَّ ذَلِكَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ . »
فَلَمْ يُضِغِ الْوَزِيرُ وَقْتَهُ سُدًى ، وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ جَمَعَ لَهُ ثَلَاثِينَ
حَطَّابًا مَعْرُوفِينَ بِالْقُوَّةِ وَالْحَذَقِ ، مَوْصُوفِينَ بِالْإِتْقَانِ وَالْبَرَاعَةِ . وَلَمَّا
مَثَلُوا بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ ، أَفْضَى إِلَيْهِمْ بِرَغْبَتِهِ ؛ أَعْنَى : كَشَفَ لَهُمْ
عَمَّا يَحْرِصُ عَلَيْهِ ، وَأَطْلَعَهُمْ عَلَى مَا يَتَمَنَّاهُ وَيَسْعَى إِلَيْهِ
فَقَالَ الْحَطَّابُونَ لِلْمَلِكِ :

« إِنَّ فِي غَابَةِ جَلَالَتِكُمْ أَشْجَارًا كَثِيرَةً ، مُتَمَاثِلَةً (مُتَشَابِهَةً) فِي

الضَّخَامَةِ وَالْإِرْتِفَاعِ ، وَالصَّلَابَةِ وَالْقُوَّةِ ، وَكُلُّهَا صَالِحَةٌ لِتَحْقِيقِ هَذِهِ
الْفِكْرَةِ . وَلَكِنَّ إِحْضَارَهَا إِلَى مَدِينَةِ « بَنَارِس » أَمْرٌ مُحَالٌ ،
لَا سَبِيلَ إِلَى تَذْلِيلِهِ (تَسْهِيلِهِ) ، وَمَطْلَبُ عَزِيزِ الْمَنَالِ (لَا أَمَلَ فِي
إِدْرَاكِهِ وَتَحْصِيلِهِ) . »

فَقَالَ لَهُمُ الْمَلِكُ :

« أَتَعْجِزُونَ - عَلَى وَفْرَةِ عَدَدِكُمْ ، وَقُوَّةِ بَأْسِكُمْ وَشَجَاعَتِكُمْ -
أَنْ تَقْتَلِعُوا مِثْلَ هَذِهِ الْأَشْجَارِ ، بِالْغَةِ مَا بَلَغَتْ مِنَ
الضَّخَامَةِ وَالطُّولِ ؟ »
فَقَالُوا لَهُ :

« إِنَّ اقْتِلَاعَ هَذِهِ الْأَشْجَارِ الْعَظِيمَةِ أَمْرٌ مَيْسُورٌ ، لَا يُرْهِقُنَا
وَلَا يُتْعِبُنَا ، وَلَا يَسْتَحِيلُ عَلَيْنَا تَحْقِيقُهُ ، وَلَكِنَّ الصُّعُوبَةَ - الَّتِي
لَا سَبِيلَ إِلَى تَذْلِيلِهَا - إِنَّمَا هِيَ فِي جَرِّ مِثْلِ هَذِهِ الْأَشْجَارِ وَإِحْضَارِهَا
إِلَى الْمَدِينَةِ ؛ فَإِنَّ الطَّرِيقَ وَغَرَّةَ (صَعْبَةً) طَوِيلَةً ، وَالْأَشْجَارَ هَائِلَةً ،
وَيَصْعُبُ جَرُّهَا عَلَى أَقْوَى الْأَقْوِيَاءِ . »



٤ - حوارُ الملكِ

فَقَالَ لَهُمْ مُتَعَجِّبًا :

« عَلَيْكُمْ بِالْجِيَادِ (الْخَيْلِ) ؛ فَهِيَ قَادِرَةٌ عَلَى جَرِّ هَذِهِ الْأَشْجَارِ . »

فَقَالُوا لَهُ :

« مَا أَعْجَزَ الْجِيَادَ - يَا مَلِيكُنَا الْعَظِيمَ - عَنْ تَحْرِيكِ مِثْلِ هَذَا الشَّجَرِ ، وَزَحْزَحَتِهِ عَنْ مَوْضِعِهِ قِرَاطًا وَاحِدًا ، مَهْمَا تَبْلُغَ الْجِيَادُ مِنَ الْقُوَّةِ وَالْبَأْسِ . »

فَقَالَ لَهُمْ :

« عَلَيْكُمْ بِالثَّيْرَانِ ؛ فَهِيَ أَقْدَرُ مِنَ الْخَيْلِ عَلَى جَرِّهَا ، وَأَصْبَرُ مِنْهَا عَلَى مَشَقَّةِ السَّيْرِ ، وَوُغُورَةِ الطَّرِيقِ . »

فَأَجَابُوهُ حَائِرِينَ :

« لَيْسَ فِي قُدْرَةِ الثَّيْرَانِ - أَيُّهَا الْمَلِكُ الْجَلِيلُ - أَنْ تَقْطَعَ فِي هَذِهِ الْغَابَةِ الْمُقْفِرَةِ (الْخَالِيَةِ) الْوَاسِعَةِ ، أَمِيالًا كَثِيرَةً

(وَالْأَمْثَالُ جَمْعُ مِيلٍ ، وَالْمِيلُ طُولُهُ : أَرْبَعَةُ آلَافٍ ذِرَاعٍ) . «
فَقَالَ لَهُمُ الْمَلِكُ :

« لَمْ يَبْقَ إِلَّا الْأَفْيَالُ ، وَمَا أَظُنُّهَا تَعْجِزُ عَنْ تَحْقِيقِ هَذِهِ الْغَايَةِ ،
وَلَا أَحْسِبُهَا تَنَوُّهُ قُوَّتُهَا بِالِاضْطِلَاعِ بِهَذَا الْمِهْمِّ . فَهِيَ - فِيمَا أَعْلَمُ -
قَادِرَةٌ عَلَى الْقِيَامِ بِهَذَا الْأَمْرِ ، بِالْفَا مَا بَلَغَ مِنَ الْمَشَقَّةِ وَالْعَنَاءِ ! »
فَقَالُوا لَهُ يَا بَاسٍ :

« لَا سَبِيلَ إِلَى ذَلِكَ ، يَا صَاحِبَ الْجَلَالَةِ . فَإِنَّ الْأَرْضَ - كَمَا
تَعْلَمُونَ - لَيْسَتْ صَخْرِيَّةً صُلْبَةً ؛ بَلْ هِيَ طِينِيَّةٌ رِخْوَةٌ مَمْلُوءَةٌ
بِالْوَحْلِ . وَلَنْ تَسْتَطِيعَ الْأَفْيَالُ أَنْ تَسِيرَ خُطْوَةً وَاحِدَةً ، دُونَ أَنْ
تَسُوخَ أَقْدَامُهَا ، (تَفْرَزَ أَرْجُلُهَا) . »

فَاشْتَدَّ غَضَبُ الْمَلِكِ ، وَاسْتَوَلَى عَلَيْهِ الْغَيْظُ ، وَقَالَ لَهُمْ مُتَوَعِّدًا :
« لَقَدْ أَمَرْتُكُمْ أَمْرِي ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى مُخَالَفَتِي فِيمَا أَمَرْتُكُمْ
بِهِ ؛ فَافْعَلُوا مَا شِئْتُمْ ، وَذَلِّلُوا الْعُقَبَاتِ ، وَسَهِّلُوا الصُّعُوبَاتِ
وَتَغَلَّبُوا عَلَى الْمُحَالِ ، وَلَا تَرْجِعُوا إِلَيَّ قَبْلَ أَنْ تُحْضَرُوا إِلَيَّ مَدِينَةً
- مِنْ أَىِّ مَكَانٍ شِئْتُمْ - إِحْدَى هَذِهِ الْأَشْجَارِ الضَّخْمَةِ

حَدَّثْتُمُونِي بِهَا . وَقَدْ حَتَمْتُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُنْجِزُوا هَذَا الْعَمَلَ فِي مَدَى
أُسْبُوعٍ وَاحِدٍ . »

هـ - دَوْحَةُ الْمَلِكِ

فَرَحَلَ الْحَطَّابُونَ - مِنْ فَوْرِهِمْ - حَتَّى وَصَلُوا إِلَى دَوْحَةٍ
(شَجَرَةٍ) كَبِيرَةٍ ضَخْمَةٍ ، فِي قَرْيَةٍ لَا تَبْعُدُ عَنِ الْمَدِينَةِ
إِلَّا مَسَافَةً يَسِيرَةً . وَكَانَتْ هَذِهِ الدَّوْحَةُ هَائِلَةً الْحَجْمِ ، صُلْبَةً
الْعُودِ ، أُنِيقَةً الشَّكْلِ ، بَدِيعَةً الْمَنْظَرِ . وَكَانَ أَهْلُ الْقَرْيَةِ يُحِبُّونَهَا ،
وَيَزْعُمُونَ أَنَّ مَلَكًا - مِنَ الْمَلَائِكِ - يَسْكُنُهَا ، وَيَعْتَقِدُونَ
أَنَّ ذَلِكَ الْمَلِكَ هُوَ الَّذِي أَكْسَبَ الدَّوْحَةَ ذَلِكَ الْجَمَالَ النَّادِرَ ،
وَأَفْرَدَهَا - مِنْ بَيْنِ الْأَشْجَارِ الْآخَرَى - بِالْقُوَّةِ وَالصَّلَابَةِ
وَحُسْنِ التَّنْسيقِ .

وَوَقَفَ الْحَطَّابُونَ أَمَامَ الدَّوْحَةِ مُفَكِّرِينَ ، مُطْرِقِي رُءُوسِهِمْ صَامِتِينَ .
وَعَالَ تَرَدُّدُهُمْ فِي أَقْتِلَاعِهَا ، وَحَزَنَهُمْ ذَلِكَ ، وَمَلَأَتْ نُفُوسَهُمْ رَهْبَةً
وَفَزَعًا . وَلَكِنَّ الْمُضْطَرَّ يَرْكَبُ الصَّعْبَ مِنَ الْأُمُورِ .

وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ بُدٌّ مِنْ إِطَاعَةِ الْمَلِكِ وَتَلْبِيَةِ أَمْرِهِ ، وَلَيْسَ فِي
إِمْكَانِهِمْ أَنْ يَحْمِلُوا إِلَيْهِ شَجَرَةً أُخْرَى مِنْ الْغَابَةِ الْبَعِيدَةِ !

٦ - أَغْرَاسُ الْحَطَّائِينَ

وَهَكَذَا قَرَّرَ قَرَارُ الْحَطَّائِينَ - بَعْدَ إِحْجَامٍ (تَرَجُّعٍ وَتَرَدُّدٍ) - عَلَى
أَنْ يَقْتَلِعُوا هَذِهِ الدَّوْحَةَ الْعَظِيمَةَ ، وَرَأَوْا - بَعْدَ التَّفَكُّيرِ وَالرَّوْيَةِ -
أَنْ يَتَرْضَوْا ذَلِكَ الْمَلِكَ الْكَرِيمَ (الرُّوحَ السَّمَاوِيَّ) الَّذِي يَحُلُّ بِهَا .
فَجَاءُوا بِطَاقَاتِ الْأَزْهَارِ ، وَنَسَقُوا مِنْهَا أَكَالِيلَ بَدِيعَةِ الْمَنْظَرِ ، ثُمَّ
نَشَرُوا الْمَصَابِيحَ فِي أَثْنَائِهَا . وَلَمْ يَأْلُوا جُهْدًا (لَمْ يَتْرُكُوا وَسِيلَةً)
فِي إِدْخَالِ السُّرُورِ عَلَى « مَلِكِ الدَّوْحَةِ » ؛ فَصَدَحَتِ الْمَوْسِيقَى ،
وَعَزَفَ الْعَازِفُونَ ، وَغَنَّى الشَّادُونَ (الْمُغَنُّونَ) ؛ لِيُشْعِرُوا « مَلِكَ الدَّوْحَةِ »
بِمَا قَرَّرَهُ مَلِيكَهُمْ ، وَيَحْتَمُوا عَلَيْهِ (يُلْزِمُوهُ) أَنْ يَهْجُرَ الدَّوْحَةَ
قَبْلَ أَنْ يَنْقَضِيَ الْأُسْبُوعُ ؛ لِأَنَّهُمْ قَدْ اعْتَزَمُوا أَنْ يَقْتَلِعُوهَا ، تَلْبِيَةً
لِأَمْرِ : مَلِكِ « بَنَارِسَ » .

وَقَدْ أَفْتَنَ الْحَطَّابُونَ فِي تَنْسِيقِ الْأَزْهَارِ ، وَوَضَعُوا مَصَابِيحَهُمْ



حَوْلَ الدَّوْحَةِ - عَلَى شَكْلِ دَائِرَةٍ - وَعَلَّقُوا أَكَالِيلَ الْيَاسَمِينِ
 عَلَى أَغْصَانِهَا ، وَرَبَطُوا - فِي أَوْرَاقِ الدَّوْحَةِ - طَاقَاتِ الْوَرْدِ
 وَالرَّيَاحِينَ ، وَجَعَلَ كُلُّ مِنْهُمْ أَصَابِعَ يَدَيْهِ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ ، رَهْبَةً
 وَخُشُوعًا ، وَتَقَنَّنَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ فِي تَوْقِيعِ الْأَلْحَانِ عَلَى طَنَابِيرِهِمْ وَعَلَى
 قِيثَارَاتِهِمْ ، وَهِيَ : آلَاتُ لِلطَّرَبِ ذَوَاتُ أَوْتَارٍ ، وَغَنَّى آخَرُونَ طَائِفَةً
 مِنَ الْأَغَانِي الْمُعْجِبَةِ .

وَقَدْ فَعَلُوا ذَلِكَ لِيَهْجُوا « مَلَكَ الدَّوْحَةِ » (يُفْرِحُوهُ) ، ثُمَّ
 يُنْذِرُوهُ بِقَرَارِ مَلِكِهِمْ فِي أَرْقٍ عِبَارَةٍ وَأَجْمَلِ أُسْلُوبٍ .

٧ - نَشِيدُ الْحَطَّابِينَ

وَأَخَذَ الْحَطَّابُونَ يُحْيُونَ ذَلِكَ الْمَلَكَ الْكَرِيمَ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ مِنَ
 التَّحِيَّةِ ، وَيُمَجِّدُونَهُ وَيُسَبِّحُونَ عَلَيْهِ أَحْسَنَ الثَّنَاءِ ، وَيَقُولُونَ لَهُ
 « يَا سَيِّدَ الرَّابِيَةِ (الْأَرْضِ الْمُرْتَقَعَةِ) ، يَا رُوحَ الْأَزْهَارِ النَّامِيَةِ
 النَّاضِرَةِ (الْمُنْتَفِخَةِ الشَّدِيدَةِ الْخُضْرَةِ) : حَقٌّ لَنَا أَنْ نُبْصِرَكَ وَنُعْرِفَكَ
 بِمَا أَنْتَ وَنَيْنَاهُ (نُخْبِرَكَ بِمَا فِي نَسْتِنَا أَنْ نَقُومَ بِهِ) :

هَذِهِ فُتُوسُ الْمَاضِيَةِ (الْحَادَّةُ) ، جِئْنَا بِهَا لِنَقْتَلِعَ دَوْحَتَكَ ؛
 لَيْكُنْ تَكُونُ قَاعِدَةً رَاسِخَةً ، يَرْسُو (يَسْتَقِرُّ) عَلَيْهَا قَصْرُ
 الْمَلِكِ الْبَازِخُ الشَّامِخُ (الْمُرْتَفِعُ) ، الَّذِي يَسْمُو فِي الْجَوِّ كَأَنَّهُ
 يَحْرُسُ السَّمَاءَ . فَاتْرُكِ الدَّوْحَةَ ، وَانْجِ بِنَفْسِكَ .
 ثُمَّ خَتَمَ الْحَطَّابُونَ أَغَانِيَهُمْ ، وَأَنَاشِيدَهُمُ الْمُعْجِبَةَ الشَّائِقَةَ (الْجَمِيلَةَ
 الْجَذَابَةَ) بِالنَّشِيدِ التَّالِي :

« يَا سَاكِنَ الدَّوْحَةِ ، فَوْقَ الرَّابِيَةِ
 وَحَارِسَ الْأَطْيَارِ ، وَهِيَ شَادِيَةٌ
 وَمَلِكَ الْأَزْهَارِ ، وَهِيَ نَامِيَةٌ

لَقَدْ عَزَفْنَا ، فَاسْتَمَعْتَ عَزَفَنَا ثُمَّ شَدَوْنَا ، فَأَجَدْنَا شَدَوْنَا
 ثُمَّ رَقَصْنَا ، فَأَطْلُنَا رَقَصْنَا

وَالْآنَ يَا بَنِي جَمْعُنَا لِيُنْذِرَكَ ، وَحَقَّ لِلنَّاصِحِ أَنْ يُبْصِرَكَ
 بِمَا ائْتَوَيْنَاهُ ، وَأَنْ يُحَدِّثَكَ

...

يا ساكنَ الدَّوْحَةِ ، فوقَ الرَّابِيَةِ
وَحَارِسَ الْأَطْيَارِ ، وَهِيَ شَادِيَةٌ :
جِئْنَا إِلَيْكَ ، بِالْفُتُوسِ الْمَاضِيَةِ

...

شَاءَ الْمَلِكُ ، فَاسْتَمِعَ مَشِيَّتَهُ : أَنْ تُصْبِحَ الدَّوْحَةُ - هَذِي - دَوَّحَةً
وَأَنْ تَحُلَّ - فِي غَدٍ - مَدِينَتَهُ

...

لِيَرْسُوَ الْقَصْرُ عَلَيْهَا رَاسِخًا مُبْتَدِعَ الشَّكْلِ ، أُنِيقًا ، بِإِذَا
يَسْمُو - عَلَى كُلِّ الْقُصُورِ - شَامِخًا

...

يا ساكنَ الدَّوْحَةِ ، فوقَ الرَّابِيَةِ
وَحَارِسَ الْأَطْيَارِ ، وَهِيَ شَادِيَةٌ :
أَهْرَبْ ؛ فَإِنَّ فِي الْهَرُوبِ الْعَافِيَةَ

...

شَادَ مَلِيكَ الْهِنْدِ فِي « بَنَارِيسَا » قَصْرًا - عَلَى جَوْ السَّمَاءِ - حَارِسَا
يُسْلِي الْخَزِينَ ، وَيَسُرُّ الْعَابِسَا

...

فَلَا تَلُمْنَا ، إِذْ نُلَبِّي الْوَاجِبَا وَلَا تَكُنْ - مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ - عَاتِبَا
وَلَا أَخَا حِقْدٍ ، وَلَا مُغَاضِبَا

٨ - سَاكِنُ الدَّوْحَةِ

فَلَمَّا سَمِعَ « مَلِكُ الدَّوْحَةِ » ذَلِكَ النَّشِيدَ ، أَذْرَكَ غَايَتَهُمْ ، وَعَرَفَ
مَقْصِدَهُمْ ، وَتَأَكَّدَ لَهُ أَنَّ الْحَطَّائِينَ جَادُونَ فِي إِتْقَانِهِمْ وَعِيدِهِمْ .
فَلَبِثَ هَادِتًا سَاكِنًا - لَحَظَاتٍ قَلِيلَةً - ثُمَّ اضْطَرَبَتِ الْأُورَاقُ ،
وَتَمَايَلَتِ الْأَغْصَانُ ، وَانْحَنَتِ الْفُرُوعُ ، كَأَنَّمَا تُشِيرُ إِلَيْهِمْ أَنَّهَا قَدْ
أَذْرَكَتْ مَا يَرْمُونِ إِلَيْهِ ، وَلَبَّتْ رَجَاءَهُمْ ، وَلَمْ تَعْصِ لَهُمْ أَمْرًا .
ثُمَّ عَادَ الْحَطَّائُونَ - مِنْ حَيْثُ أَتَوْا - وَقَدْ اقْتَسَعُوا بِنَجَاحٍ
مَسْعَاهُمْ ، وَعَرَفُوا أَنَّ « سَاكِنَ الدَّوْحَةِ » قَدْ أَذْعَنَ لِمَشِيئَةِ مَلِكِ
« بَنَارِيسَا » ، وَخَضَعَ لِإِرَادَتِهِ .

٩ - حَدِيثُ الدَّوْحَةِ

وَلَقَدْ مَالَتْ بَعْضُ أَوْراقِ الدَّوْحَةِ إِلَى بَعْضٍ ، وَهِيَ تَقُولُ :
 « لَقَدْ اعْتَزَمَ مَلِيكَ » بَنَارِسَ « أَنْ يُنْفَذَ قَرَارُهُ ، وَلَا مَرَدَّ
 لِحُكْمِهِ ، وَلَا شَيْءَ يَدْفَعُ أَمْرَهُ وَيَرْجِعُهُ . وَلَسْنَا نَخْشَى الْفَنَاءَ ،
 وَلَا نَرْهَبُ الرَّدَى (لَا نَخَافُ الْمَوْتَ) ؛ وَلَكِنَّا نَجْزَعُ وَنَحْزَنُ
 لِمَا يَلْقَاهُ ذَلِكَ « الْمَلِكُ » الَّذِي يَسْكُنُ هَذِهِ الدَّوْحَةَ ، وَلَيْسَ
 لَهُ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى تَرْكِهَا ، وَلَا مَأْوَى لَهُ فِي غُرِّهَا . وَسَيَكُونُ
 هَلَاكُنَا - بِلا شَكٍّ - سَبَبًا فِي شَقَاءِ جَمِيعِ الْأَشْجارِ الْمُحِيطَةِ
 بِنَا ، وَتَهْشِيمِهَا وَتَكْسِيرِهَا . وَقَدْ احْتَمَتْ - مُنْذُ نَشَأَتْ -
 بِحِمَايَتِنَا ، وَعَاشَتْ - طُولَ عُمْرِهَا - فِي كَنَفِنَا (بَقِيَّتْ فِي جَانِبِنَا
 وَحِمَايَتِنَا) . وَمَا هَمَّنَا أَنْ نَلْقَى حَتْفَنَا وَمَضْرَعَنَا ، وَنَسْتَقْبِلَ مَوْتَنَا
 وَهَلَاكُنَا ، وَإِنَّمَا هَمَّنَا وَآلَمَنَا مَصَارِعُ هَذِهِ الْأَطْفَالِ الشَّجَرِيَّةِ
 الصَّغِيرَةِ ، الَّتِي تَمُوتُ - عَلَى الْفَوْرِ - مَتَى وَقَعَتْ الدَّوْحَةُ الْعَظِيمَةُ
 عَلَيْهَا . فَمَنْ لَنَا بِمَنْ يُبْلِغُ مَلِيكَ « بَنَارِسَ » أَنَّهُ جَائِرٌ (ظَالِمٌ)

فِي حُكْمِهِ ، وَأَنَّهُ سَيُهْلِكُ الْكَثِيرَ مِنْ أَطْفَالِنَا الْأَعْرَاءِ فِي سَبِيلِ
بِنَاءِ قَصْرِهِ ؟ »

١٠ - فِي الْمَنَامِ

أَمَّا « سَاكِنُ الدَّوْحَةِ » ، فَقَدْ قَالَ فِي نَفْسِهِ :
« لَا سَبِيلَ إِلَى تَرْكِ مَلِكِ « بِنَارِسَ » وَشَأْنَهُ ، لِيُنْفِذَ هَذَا الْقَرَارَ
الْجَائِزَ . وَلَا بُدَّ لِي مِنْ زِيَارَتِهِ - فِي عَالَمِ الْأَحْلَامِ - لَعَلِّي أَسْتَمِيلُهُ
وَأَسْتَعِظُهُ ، وَأَلَيِّنُ مِنْ قَلْبِهِ الْقَاسِيَ ، فَيَعْدِلَ عَنِ تَحْقِيقِ وَعِيدِهِ . »
وَلَمَّا أَقْبَلَ اللَّيْلُ ، وَاسْتَسَلَّمَ مَلِكُ « بِنَارِسَ » لِلنَّوْمِ ، ظَهَرَ
أَمَامَهُ « مَلِكُ الدَّوْحَةِ » - فِي عَالَمِ الرُّؤْيَا - فِي صُورَةِ شَجَرٍ لَامِعٍ ،
بِهَيِّ الطَّلَعَةِ جَمِيلِ الْمَنْظَرِ ، مُوْتَلِقِ الْمَحْيَا (مُنِيرِ الْوَجْهِ) ، يَلُوحُ
عَلَيْهِ النُّورُ الشَّعْشَعَانِيُّ (الْمُنْتَشِرُ الْمُتَوَهِّجُ) ، وَقَالَ لَهُ - فِي صَوْتٍ
أَشْبَهَ شَيْءٌ بِخَفِيفِ الشَّجَرِ - :

« هِيَ يَا مَلِكُ « بِنَارِسَ » الْعَظِيمِ ! أَلَا تَعْرِفُنِي أَيُّهَا الْعَزِيزُ
الْكَرِيمُ ؟ أَنَا مَلِكُ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَمَرْتَ رِجَالَكَ بِاقْتِلَاعِهَا . وَقَدْ عَلِمْتُ

— الْيَوْمَ — نَبَأَ هَذَا الْقَرَارِ الْخَطِيرِ ، وَلَمْ أَكْذُ أَعْلَمُهُ حَتَّى اعْتَرَمْتُ
زِيَارَتَكَ لِأَثْنَيْكَ (لِأَرْدُكَ) عَنْ عَزْمِكَ ، شَفَقَةً بِنَا ، وَرَحْمَةً بِأَطْفَالِ
الدَّوْحَةِ الصَّغَارِ . «

فَقَالَ لَهُ مَلِكُ « بِنَارِسَ » :

« لَا سَبِيلَ إِلَى الْعُدُولِ عَنْ هَذَا الْقَرَارِ ؛ فَإِنَّ دَوْحَتَكَ وَحَدَهَا
طَلَبْتِي ، وَقَصْدِي وَغَايَتِي . وَلَسْتُ أَرَى — فِي كُلِّ أَنْحَاءِ بِلَادِي —
شَجَرَةً غَيْرَهَا تُحَقِّقُ لِي أُمْنِيَّتِي الْغَرِيزَةَ الَّتِي تَصُبُّو إِلَيْهَا نَفْسِي ؛ فَهِيَ
— فِيمَا أَعْلَمُ — طَوِيلَةٌ بِاسِقَةٍ ، صُلْبَةٌ الْعُودِ ، كَافِيَةٌ لِتَشْيِيدِ
الْقَصْرِ فَوْقَهَا وَقَدْ أَبْنَيْتُ لَكَ عُذْرِي ، وَشَرَحْتُ لَكَ مَقْصِدِي ، فِي
وُضُوحٍ وَصَرَاحَةٍ وَجَلَاءٍ . «

١١ — عِنَادُ الْمَلِكِ

فَقَالَ لَهُ « مَلِكُ الدَّوْحَةِ » :

« تَرَوْا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْعَظِيمُ (فَكَّرُ عَلَى مَهَلٍ) ، وَتَدَبَّرُوا
مَا تَقُولُ ، وَأَمْنِ الْفِكْرَ ، وَدَقِّقِ النَّظَرَ فِيمَا أَنْتَ قَادِمٌ عَلَيْهِ مِنْ



أَمْرٍ جَلَلٍ (خَطِيرٍ عَظِيمٍ). وَأَذْكُرُ : أَنَّنِي قَدِ اتَّخَذْتُ هَذِهِ الدَّوْحَةَ
 لِي مَوْطِنًا مُنْذُ سِتِّينَ أَلْفَ عَامٍ ، وَأَنَّ سُكَّانَ الْقُرَى جَمِيعًا يُكْرِمُونَ
 الدَّوْحَةَ مِنْ أَجْلِي ، وَأَنَّنِي قَدْ كَفَّاتُهُمْ - عَلَى ذَلِكَ - أَحْسَنَ مُكَافَأَةٍ ؛
 فَأَسَدَيْتُ إِلَيْهِمُ الْجَمِيلَ ، وَقَدَّمْتُ لَهُمُ الْخَيْرَ ، وَتَعَمَّدْتُ الشَّجَرَ
 مُوَالِيًا إِيَّاهُ بِعِنَايَتِي ، وَشَمِلْتُ الْأَطْيَارَ بِرِعَايَتِي ، وَبَعَثْتُ ظِلَالَ الدَّوْحَةِ
 عَلَى مَسَافَةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الْحَشَائِشِ الَّتِي تَكْتَنِفُهَا (تُحِيطُ بِهَا) . وَقَدْ
 أَنَسَ النَّاسُ بِظِلَالِهَا الْوَارِفَةِ (الْمُنْبَسِطَةِ) ، وَارْتَاخُوا لِلْجُلُوسِ إِلَى
 جَانِبِهَا ، لِيَنَسِمُوا الْهَوَاءَ الْعَلِيلَ (يَسْتَنَشِقُوهُ) . وَلَسْتُ جَدِيرًا مِنْكَ
 - بَعْدَ مَا أَسَدَيْتُهُ إِلَى شَعْبِكَ مِنْ حَسَنَاتٍ وَخَيْرَاتٍ - أَنْ تُنْزِلَ
 بِدَوْحَتِي مِثْلَ هَذَا الْعِقَابِ الظَّالِمِ ، وَتُقَابِلَ صَنِيعِي هَذَا بِالْجُحُودِ
 وَالْإِنْكَارِ ، وَتَجْزِيَنِي عَلَى الْإِحْسَانِ ، بِالْعُقُوقِ وَالْكَفْرَانِ .
 فَقَالَ لَهُ مَلِكُ « بَنَارِس » :

« لَقَدْ أَعْجَبَنِي حُسْنُ حَدِيثِكَ ، وَأَقْنَعَنِي حُجْبُكَ وَأَدِلَّتُكَ
 الصَّحِيحَةُ . وَلَكِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ تَلْبِيَةَ مُلْتَمَسِكَ ، وَإِجَابَةَ مَطْلَبِكَ ؛
 فَقَدْ أَسْلَفْتُ قَضَائِي ، وَقَدَّمْتُ حُكْمِي فِي ذَلِكَ ، وَأَمَرْتُ رِجَالِي

بِاِقْتِلَاعِ هَذِهِ الدَّوْحَةِ ، وَلَيْسَ إِلَى تَبْدِيلِ أَمْرِي مِنْ سَبِيلٍ . «
 ١٢ - الرَّجَاءُ الْأَخِيرُ

فَحَنَى « مَلِكُ الدَّوْحَةِ » رَأْسَهُ إِلَى صَدْرِهِ ، ثُمَّ قَالَ فِي هَمْسٍ
 وَخُفْوٍ :

« لَمْ يَنْبَقَ لِي - بَعْدَ أَنْ رَفَضْتَ رَجَائِي ، وَأَيَّتَ تَحْقِيقَ رَغْبَتِي
 إِلَّا مُلْتَمَسٌ وَاحِدٌ ، أَمْلُ أَنْ تَعِدَنِي بِإِجَابَتِهِ ، وَأَرْجُو أَنْ تُعْطِيَنِي
 وَعَدًا بِقَبُولِهِ . »

فَقَالَ مَلِكُ « بِنَارِسَ » :

« قُلْ ، فَأَنَا أَسْمَعُ . »

فَقَالَ « مَلِكُ الدَّوْحَةِ » :

« أَرْجُو أَنْ تَأْمُرَ رِجَالَكَ بِقِطْعِ الدَّوْحَةِ ثَلَاثَ قِطَعٍ : الرَّأْسَ
 - أَوَّلًا - بِمَا يُكَلِّلُهُ مِنْ فُرُوعٍ وَأُورَاقٍ خَضِرٍ مُتَمَوِّجَةٍ ، وَالْوَسْطَ
 - ثَانِيًا - بِمَا عَلَيْهِ مِنْ فُرُوعٍ وَأَغْصَانٍ هِيَ أَذْرُعُ الدَّوْحَةِ ، وَعَدَدُهَا
 مِائَةُ ذِرَاعٍ . فَإِذَا انْتَهَوْا مِنْ ذَلِكَ ، قَطَعُوا الْجَذْعَ الَّذِي يَحْمِلُ ذَلِكَ
 الطَّوْدَ الشَّامِخَ (الْجَبَلَ الْعَالِي) الْعَظِيمَ . »

فَقَالَ مَلِكُ « بَنَارِسَ » :

« هَذَا التَّماسُ عَجِيبٌ ، وَمَطْلَبٌ يَدْعُو إِلَى الدَّهْشَةِ ، وَلَمْ أَسْمَعْ
بِمِثْلِهِ طُولَ عُمْرِي . وَإِنِّي لَيَذْهَبُنِي أَنْ تَلْتَمِسَ مِنِّي أَنْ أُعَذِّبَكَ ،
وَأُذِيقَكَ الْمَوْتَ ، مَرَّاتٍ ثَلَاثًا ! أَلَيْسَ مِنَ الْبِرِّ وَالرَّحْمَةِ بِكَ أَنْ تَحْتَمِلَ
آلَامَ الْمَوْتِ مَرَّةً وَاحِدَةً ؟ »

فَقَالَ « مَلِكُ الدَّوْحَةِ » :

« كَلَّا - أَيُّهَا الْمَلِكُ الْعَظِيمُ - فَلَيْسَ يُزْعِجُنِي أَنْ أَمُوتَ وَأُلْقَى
مَصْرَعِي ؛ فَإِنَّ الْمَوْتَ حَقٌّ عَلَى كُلِّ كَائِنٍ فِي الْوُجُودِ . وَلَكِنَّ
مَا يَهْمُنِي وَيُثْقِلُ بَالِي أَنْ جَمَهَرَةً (جَمَاعَةً) مِنَ الْأَطْفَالِ الشَّجَرِيَّةِ
النَّامِيَةِ مِنْ أُسْرَتِي بِجَوَارِ الدَّوْحَةِ خَرَجَتْ مِنْ ثِمَارِي ، وَعَاشَتْ
فِي كَنَفِي (تَحْتَ ظِلِّي) . فَإِذَا سَقَطَتْ دَوْحَتِي عَلَيْهَا مَرَّةً وَاحِدَةً ، أَهْلَكَتْ
- بِثِقَلِهَا الْعَظِيمِ - أَكْثَرَ أَطْفَالِ الصُّغَارِ ، وَأَسْلَمَتْهَا إِلَى الْمَوْتِ .
وَإِنِّي حَبِيٌّ وَشَفِيقٌ وَبَرٌّ بِهَذِهِ الْأَبْنَاءِ الصَّغِيرَةِ لَتَدْفَعُنِي إِلَى تَقْطِيعِ
أَوْصَالِي (تَمْزِيقِ أَعْضَائِي) ، وَتَحْمِلِ آلَامِ الْمَوْتِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ؛
حَتَّى تَنْجُوَ أَكْثَرَ الْأَشْجَارِ مِنَ الْهَلَاكِ ، وَتَسْلَمَ مِنَ الْأَذَى . فَهَلْ

أَنْتَ مُجِيبِي إِلَى هَذَا الرَّجَاءِ ، وَمُحَقِّقِي لِي هَذَا الْمُتَمَسِّ الْعَادِلَ ؟
 فَاسْتَوَلَى الْعَجَبُ عَلَى مَلِكِ « بَنَارِسَ » مِمَّا سَمِعَ ، وَتَعَاطَمَتْهُ
 الدَّهْشَةُ (أَشَدَّ تَعَجُّبُهُ) مِمَّا نَطَقَ بِهِ « مَلِكُ الدَّوْحَةِ » .
 فَقَالَ لَهُ : « عَلَى أَنْ أُجِيبَكَ إِلَى هَذَا الْإِلْتِمَاسِ ! »
 وَمَا أَنْتُمْ مَلِكُ « بَنَارِسَ » كَلِمَتُهُ ، حَتَّى تَلَاشِيَ ذَلِكَ الطَّيْفُ :
 طَيْفُ « مَلِكِ الدَّوْحَةِ » ، وَاسْتَخَفَى عَنْهُ .

١٣ - الْقَصْرُ الْجَدِيدُ

وَلَمَّا جَاءَ الْيَوْمُ التَّالِي ، نَادَى مَلِكُ « بَنَارِسَ » وَزِيرَهُ الْحَكِيمَ
 « نَارَادَا » ، وَأَمَرَهُ بِاسْتِدْعَاءِ الْحَطَّائِينَ إِلَيْهِ . وَلَمَّا مَشَلُّوا بَيْنَ يَدَيْهِ ،
 قَالَ لَهُمْ :

« لَقَدْ عَدَلْتُ عَنْ رَأْيِي ، وَلَا حَاجَةَ بِي إِلَى اقْتِلَاعِ الدَّوْحَةِ الَّتِي
 أَمَرْتُكُمْ بِإِخْضَارِهَا إِلَى مَدِينَتِي . وَقَدْ عَنَّ لِي (خَطَرَ بِيَالِي) أَنْ أُقِيمَ
 عَمُودًا - مِنْ الصُّخْرِ الصُّلْبِ - فِي مِثْلِ ارْتِفَاعِ هَذِهِ الدَّوْحَةِ ؛ لِأَشِيدَ
 عَلَيْهِ قَصْرِي الْجَدِيدَ . »

ثُمَّ اسْتَأْتَفَ حَدِيثَهُ (عَاوَدَ كَلَامَهُ) قَائِلًا :

« لَقَدْ بَهَّرَنِي (أَذْهَنِي) مَا رَأَيْتُهُ مِنْ جَلِيلِ الصِّفَاتِ ، وَنَبِيلِ
الْمَزَايَا ، فِي مَلِكٍ هَذِهِ الدَّوْحَةِ ، وَهَالِي وَمَلَأَ نَفْسِي إعْجَابًا بِهِ ،
وَإِكْبَارًا لَهُ : مَا أَبْصَرْتُهُ فِيهِ مِنَ الْوَفَاءِ وَالْحُبِّ وَإِنْكَارِ الذَّاتِ ،
وَالْجُودِ بِنَفْسِهِ فِي سَبِيلِ إِنْقَادِ غَيْرِهِ . »

ثُمَّ قَصَّ مَلِكُ « بَنَارِسَ » عَلَيْهِمْ قِصَّةَ « مَلِكِ الدَّوْحَةِ » ، وَذَكَرَ
لَهُمْ حَدِيثَهُ - مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ - فَدَهَشُوا لِهَذَا الرُّوحِ الْكَرِيمِ ،
وَأَعْجَبُوا بِمَا أَبْدَاهُ مِنْ خُلُقٍ رَائِعٍ قَوِيمٍ ، وَوَفَاءٍ نَادِرٍ عَظِيمٍ .

الفصل الثاني

ساكن الصخرة

١ - التمثال الصخريُّ

فَقَالَ وَزِيرُهُ الْحَكِيمُ : « نَارَادَا :
 « لَقَدْ ذَكَرْتَنِي هَذِهِ الْقِصَّةُ الْعَجِيبَةُ ، بِقِصَّةِ التَّمثالِ الصَّخَرِيِّ
 الَّذِي تَرَوْنَهُ فِي الْمَعْبَدِ الْكَبِيرِ . فَهِيَ - فِيمَا أَرَى - جَدِيرَةٌ بِأَنْ
 تُخَلَّدَ فِي بَطُونِ الْأَسْفَارِ (الْكُتُبِ) ، لِمَا فِيهَا مِنْ الْعِظَةِ وَالْإِعْتِبَارِ . »
 فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : « أَتَعْنِي تِمثالَ الرَّاجَا (الْأَمِيرِ الْهِنْدِيِّ) ،
 وَالتَّمائِيلَ الَّتِي تُحِيطُ بِهِ مِنْ أَفْرَادِ أُسْرَتِهِ وَعَشِيرَتِهِ ؟ »

٢ - الصُّخُورُ الْأَدَمِيَّةُ

فَقَالَ الْوَزِيرُ :
 « نَعَمْ . وَمَا هِيَ بِتَمَائِيلَ مَنْحُوتَةٍ - كَمَا يَظُنُّ الْكَثِيرُونَ -
 بَلْ هِيَ أَنْاسِيُّ (نَاسٌ) عَاشُوا فِي مَدِينَتِنَا « بَنَارِسَ »

رَدَحًا مِنَ الدَّهْرِ (أَقَامُوا فِيهَا زَمَنًا طَوِيلًا) ، ثُمَّ مُسِخُوا - بَعْدَ
حَيَاتِهِمْ - صُخُورًا . »

فَقَالَ الْمَلِكُ مَذْهُوشًا :

« لَقَدْ طَالَمَا وَقَفْتُ أَمَامَ تِلْكَ التَّمَاثِيلِ الصَّخَرِيَّةِ الْبَارِعَةِ ،
وَعَجِبْتُ مِنْ إِبْدَاعِهَا ، وَتَأَنَّنَيْتُ صَانِعِهَا فِي تَصْوِيرِهَا وَنَحْتِهَا ، وَكَيْفَ
سَمَّا بِهِمُ الْفَنُّ الْأَصِيلُ حَتَّى كَادَ يُنْطِقُهُمْ ، وَيُشْعِرُ النَّاطِرَ إِلَيْهِمْ
أَنَّ الْحَيَاةَ سَارِيَّةٌ فِيهِمْ ، لَا سِيَّمَا تَمَثَّلُ الرَّاجَا ؛ فَمَا أَذْكَرُ أَنِّي وَقَفْتُ
أَمَامَهُ مَرَّةً وَاحِدَةً حَتَّى خَيَّلَ إِلَيَّ أَنَّهُ لَا يَزَالُ يُفَكِّرُ وَيَسْمَعُ مَا أَقُولُ
وَيَفْهَمُهُ ، وَحَسِبْتُ أَنَّ فِي جُسَدِهِ الصَّخَرِيِّ نَفْسًا مُسْتَقِرَّةً فِي صَمِيمِهِ .
فَمَا أَسْمُ ذَلِكَ الرَّاجَا ؟ وَمَا قِصَّتُهُ ؟ وَكَيْفَ عَاشَ ؟ وَكَيْفَ مُسِخَ
- بَعْدَ حَيَاتِهِ - صَخْرًا ؟ »

٣ - « سَامِيَتِي »

فَقَالَ « نَارَادَا » :

« كَانَ هَذَا الرَّاجَا - أَوَّلَ أَمْرِهِ - نَاسِكًا مَعْرُوفًا بِالزُّهْدِ

وَالْوَرَجَ ، وَكَانَ يُدْعَى « سَامِيَتِي » ، وَقَدْ عَاشَ فِي إِحْدَى الْقُرَى
الصَّغِيرَةِ الْوَاقِعَةِ عَلَى نَهْرِ « الْكَنْجِ » . وَقَدْ رَفَعَتْهُ فَضَائِلُهُ وَزُهْدُهُ
إِلَى مَرْتَبَةِ الْأَطْهَارِ الْأَخْيَارِ ؛ فَكَانَ مَثَلًا مِنْ أَعْلَى أَمْثَلَةِ التَّقْوَى :
لَا هَمَّ لَهُ إِلَّا الصَّلَاةُ وَالتَّسْكُتُ وَعِبَادَةُ الْخَالِقِ ، لَا يَشْغَلُهُ عَنْ ذَلِكَ
شَاغِلٌ مِنْ طَيِّبَاتِ الدُّنْيَا وَلَذَائِذِ الْحَيَاةِ وَمُتَعِ الْفُرُورِ .

وَقَدْ ذَاعَتْ فَضَائِلُهُ وَمَزَايَاهُ فِي بِلَادِ الْهِنْدِ - قَاصِيَةً وَدَانِيَةً -
فَأَقْبَلَتْ عَلَيْهِ الْوُفُودُ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ وَحَدَبٍ (مِنْ كُلِّ جِهَةٍ) ،
تَمَلُّا أَبْصَارَهَا مِنْهُ ، وَتَلْتِمِسُ دَعَوَاتِهِ وَبَرَكَاتِهِ ، وَتَرْجُو الشِّفَاءَ وَالْبَرَاءَ
عَلَى يَدَيْهِ ، بَعْدَ أَنْ عَرَفُوا أَنَّهُ مُجَابُ الدَّعْوَةِ ، وَرَأَوْا « بَرَهُمَا »
لَا يَرُدُّ لَهُ رَجَاءٌ ، وَلَا يَرْفُضُ لَهُ شَفَاعَةً .

٤ - خَطَرَاتُ نَفْسٍ

وَذَا صَبَاحٍ فَكَّرَ النَّاسِكُ مَلِيًّا (طَوِيلًا) فِيمَا يَسْمَعُهُ مِنْ ثَنَاءِ
النَّاسِ عَلَيْهِ ، وَتَمْجِيدِهِمْ فَضَائِلَهُ وَمَزَايَاهُ . فَسَاوَرَهُ الرَّيْبُ ، وَمَلَأَ
نَفْسَهُ الشُّكَّ فِي أَمْرِهِ ، وَقَالَ فِي نَفْسِهِ مُتَعَجِّبًا :

« تَرَى : أَيْ فَضْلِ اسْتَحَقَّتُهُ فَأَظْفَرَنِي بِهِذِهِ الْمَنْزِلَةِ الَّتِي
رَفَعُونِي إِلَيْهَا ؟ »

أَتُرَانِي جَدِيرًا بِهِذِهِ الْمَدَائِحِ الَّتِي يُثْنُونَ بِهَا عَلَيَّ ؟ وَكَيْفَ اسْتَحَقَّهَا
وَأَنَا لَمْ أَبْلُ تَقْسِي (لَمْ أُخْتَبَرْهَا) مَرَّةً وَاحِدَةً ، وَلَمْ أُعَرِّضْهَا لِامْتِحَانٍ
إِرَادَتِهَا يَوْمًا مِنْ الْأَيَّامِ أَمَامَ بَعْضِ الْمُغْرِبَاتِ الَّتِي تَقْتِنُ الْعَالَمَ ؟
فَكَيْفَ أَحْكُمُ عَلَى قُوَّةِ عَزِيمَتِهَا ؟ وَأَنَّى لِي أَنْ أَتَعَرَّفَ صِدْقَ مَعْدِنِهَا
وَأَصَالَةَ عُصْرِهَا ، قَبْلَ أَنْ أُلْقِيَ بِهَا فِي بُوتَقَةِ الْإِخْتِبَارِ ؛ حَيْثُ تَصْهَرُهَا
نَارُ التَّجَرُّبَةِ ؟ وَأَيْ فَضْلٍ لِي فِي هَذَا الصَّلَاحِ مَا دُمْتُ لَا أَرَى حَوْلِي
إِلَّا طَائِفَةً مِنْ خِيَارِ النَّاسِكِينَ الصَّالِحِينَ ؟ لَا مَعْدَى لِي - إِذَنْ -
عَنِ اخْتِبَارِ تَقْسِي وَامْتِحَانِهَا ، وَتَعَرِّضِهَا لِمَفَاتِنِ الْحَيَاةِ وَمَبَاهِجِهَا .
وَلَا بُدَّ مِنْ الرِّحْلَةِ إِلَى بَعْضِ حَوَاضِرِ « الْهِنْدِ » الْكَبِيرَةِ ، حَيْثُ
أَقْضِي زَمَنَ التَّجَرُّبَةِ ، وَأُخْتَلِطُ بِالْبَيْئَاتِ الْمُخْتَلَفَةِ الْأُخْرَى ، وَأَرَى
الْحَيَاةَ الْمَرِحَّةَ الْفَاتِنَةَ مِنْ قَرِيبٍ ، وَأَنْدَمِجُ فِي بَعْضِ مَا تَحْوِيهِ
مِنْ أَسْبَابِ التَّرَفِّ وَأَفَانِينَ النِّعَمِ .

أُرِيدُ أَنْ أَلْتَقِيَ الشَّرَّ وَجْهًا لِوَجْهِهِ ، وَأُحَارِبُهُ غَيْرَ هَيَّابٍ ! أُرِيدُ

أَنْ أَقْهَرَهُ بِمَا أُوتِيَتْهُ (مَلَكَتُهُ) مِنْ عَزِيمَةٍ صَادِقَةٍ ، وَصَوْمٍ دَائِمٍ ،
وَحِرْمَانٍ قَاطِعٍ لِجَمِيعِ الطَّيِّبَاتِ . وَلَنْ يَتَسَنَّى (لَنْ يَتَيَسَّرَ) لِي ذَلِكَ
إِلَّا بَعْدَ أَنْ أَتَذَوَّقَهَا ، وَتَشْتَهِيَهَا نَفْسِي ، ثُمَّ أَكُفَّ عَنْهَا ، وَيَعْصِمَنِي
مِنْ غَشْيَانِهَا زُهْدِي وَنُسْكِ وَتَقْوَايَ ، فَتُجَنِّبَنِي إِرَادَتِي الْغَلَّابَةَ
الْحَازِمَةَ أَقْرِافَ الْإِثْمِ ، وَالْإِنْفِاسَ فِي النَّعِيمِ وَالتَّرَفِ .
وَمَتَى نَجَحْتُ فِي هَذَا الْإِمْتِحَانِ أُسْتَحَقِّقْتُ أَنَّ أَظْفَرَ بِلَقَبِ :
« صَاحِبِ الْفَضِيلَةِ » ، عَنْ جَدَّارَةٍ وَصِدْقٍ .

٥ - فِي مَدِينَةِ « بَنَارِس »

وَمَا لَاحَتْ تِلْكَ الرَّغْبَةُ الْعَارِضَةُ لَهُ ، حَتَّى أَصْبَحَتْ عَرِيمَةً
ثَابِتَةً ، لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهَا وَهْنٌ ، وَلَا يَلْحَقُ بِهَا ضَعْفٌ وَلَا تَرَدُّدٌ .
وَمَا لَبِثَ أَنْ أَعَدَّ لَهَا عُدَّتَهُ ؛ فَوَدَّعَ أُسْرَتَهُ ، وَأَهْلَهُ وَعَشِيرَتَهُ
وَسَافَرَ - مِنْ فَوْرِهِ (لِلْحَالِ) - إِلَى مَدِينَةِ « بَنَارِس » ، وَقَدْ سَبَقَتْهُ
شُهْرَتُهُ إِلَيْهَا قَبْلَ أَنْ يَحُلَّ بِهَا ، وَذَاعَ نَبَأُ مَقْدَمِهِ بَيْنَ أَهْلِهَا .

٦ - هدايا الأهلين

فَأَقْبَلَتْ عَلَيْهِ الْوُفُودُ - عَلَى أَثَرِ وُصُولِهِ - وَجَلَبُوا لَهُ الْكَثِيرَ
 مِنَ النَّفَائِسِ وَالطَّرَفِ وَالْهَدَايَا عَلَى اخْتِلَافِهَا . وَعَرَضَ عَلَيْهِ
 الْأَهْلُونَ أَنْ يُتَفَضَّلَ عَلَيْهِمْ بِتَشْرِيفِ دُورِهِمْ . وَحَاوَلَ كُلُّ
 وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنْ يَسْتَأْثِرَ بِهِ وَيُسْكِنَهُ دَارَهُ . وَأَخْضَرُوا لَهُ
 أَكْدَاسًا مِنْ طَيِّبَاتِ الْفَاكِهَةِ ، وَلَذَائِدِ الْأَطْعِمَةِ الشَّهِيَّةِ . فَرَفَضَ
 كُلٌّ مَا عَرَضُوهُ عَلَيْهِ قَائِلًا :

« لَا حَاجَةَ لِي بِشَيْءٍ مِنْ هَذَا كُلِّهِ . حَسْبِيَ - مِنَ الْمَسْكَنِ -
 رُكْنٌ صَغِيرٌ قَرِيبٌ مِنْ مَعْبَدِ أَنْزَوِي فِيهِ ، وَحَسْبِيَ - مِنَ
 الطَّعَامِ - بَلِيلَةٌ مِنَ الذُّرَّةِ . »

وَلَكِنْ الْهَدَايَا لَمْ تَنْقَطِعْ ؛ فَلَمْ تَلْبَثْ دَارُهُ أَنْ ازْدَحَمَتْ
 بِلَذَائِدِ الْفَاكِهَةِ وَالْأَطْعِمَةِ الشَّهِيَّةِ .

٧ - الثَّمَرَةُ الْأُولَى

فَرَأَى أَمَامَهُ أَكْدَاسًا مِنْ فَاكِهَةِ الْأَنَانَسِ ، ذَاتِ الرَّائِحَةِ

الحُلُوة الطَّيِّبَةُ ، وَأَكْوَامًا كَثِيرَةً مِنْ فَاكِهَةِ الْمَنْجُو ذاتِ الطَّعْمِ الْمَرِيءِ الْمُسْتَسَاغِ ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ الْمَا كُلِّ الْمُنْعِشَةِ ، جَائِمَةً أَمَامَهُ . فَقَالَ فِي نَفْسِهِ :

« أَيُّ مَزِيَّةٍ أَسْتَحِقُّ بِهَا الْفَضْلَ وَالتَّكْرِيمَ حِينَ أُحْرِمُ نَفْسِي هَذِهِ الْمَتَعَ ، مَا دُمْتُ لَمْ أَذُقْ لَهَا طَعْمًا ؟ إِنَّ الْفَضِيلَةَ الْحَقَّ لَا يَنَالُهَا صَاحِبُهَا إِلَّا إِذَا حَرَّمَ نَفْسَهُ مِنَ الطَّيِّبَاتِ الَّتِي تَشْتَهِيهَا .

فَلَا بُدَّ - إِذَنْ - مِنْ أَنْ أَتَذَوَّقَ أَوَّلًا وَاحِدَةً مِنْ هَذِهِ الْفَاكِهَةِ وَمَتَى اسْتَمَرَّاتُهَا ، وَاسْتَحْسَنْتُ طَعْمَهَا ، كَفَفْتُ نَفْسِي عَنْهَا عَلَى حُبِّهَا (تَرَكْتُهَا بِرَغْمِ مَحَبَّتِي إِيَّاهَا) ، وَتَفَتَّحَ نَفْسِي لِمَرَآهَا . وَحِينَئِذٍ يُصْبِحُ زُهْدِي فِيهَا ، وَحِرْمَانُ نَفْسِي تَذَوُّقَهَا ، صَنِيعًا مَشْكُورًا ، وَجِهَادًا عِنْدَ رَبِّي مَأْجُورًا (يُكَافِئُنِي عَلَيْهِ) . «
وَتَمَّةٌ (حِينَئِذٍ) أَمْسَكَ بِشَمْرَةٍ مِنْ طَيِّبَاتِ الْفَاكِهَةِ ، فَوَحَدَهَا سَائِغَةً شَهِيَّةً ، فَأَكَلَ الثَّانِيَةَ وَالثَّالِثَةَ ، فَأَعْجَبَ بِلَذَائِذِ هَذَا الشَّمْرِ .

وَمَا لَبِثَ أَنْ نَزَلَ عَلَى حُكْمِ الشَّرِّهِ ، وَأَذْعَنَ لِلنَّهْمِ (خَضَعَ

لِلْبِطْنَةِ وَالْحَرْصِ عَلَى الطَّامِرِ) ، فَلَمْ يُبْقِ مِنْ سِلَالِ الْفَاكِهَةِ
- عَلَى كَثَرَتِهَا - شَيْئًا .

٨ - فِي طَرِيقِ الشَّرِّ

وَلَمْ يَكُنْ هَذَا الْإِخْتِبَارُ الْأَوَّلُ آخِرَ امْتِحَانٍ أَخْفَقَ فِيهِ .
وَلَا غَرَوْ فِي ذَلِكَ (لَا عَجَبَ) ؛ فَإِنَّ مَنْ يُعَرِّضُ نَفْسَهُ طَائِعًا
مُخْتَارًا لِمَفَاتِنِ الْحَيَاةِ وَمُغْرِيَاتِهَا ، وَيَجْرُو عَلَى أَنْ يَزُجَّ بِنَفْسِهِ فِي
مُوَاجَهَةِ الشَّرِّ - بِلَا دَائِعٍ - إِنَّمَا يُغَرَّرُ بِهَا أَشَدَّ تَغْرِيرٍ ، وَيُعَرِّضُهَا
لِلْهَلَاكِ الْمُحَقَّقِ .

وَهَكَذَا كَانَ ، وَابْتَدَأَ الطَّمَعُ يُغْرَسُ فِي قَلْبِ هَذَا النَّاسِكِ
الْوَرِيعِ التَّقِيِّ .

٩ - خَاتَمُ الْمَلِكِ

وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ ، وَزَادَ طُمُوحُهُ ، وَأَشْتَدَّتْ رَغْبَتُهُ فِي لَذَائِذِ الْحَيَاةِ ،
وَارْتَقَى مِنْ رَغْبَةٍ إِلَى رَغْبَةٍ ، حَتَّى تَوَشَّجَ طَمَعُهُ ، وَاشْتَبَكَتْ أُصُولُهُ
فِي قَلْبِهِ ؛ فَقَالَ فِي نَفْسِهِ ذَاتَ يَوْمٍ :

« أُريدُ أَنْ أَكُونَ » راجا ؛ لِتَكُونَ لِي قُصُورٌ فَخِرَةٌ ، وَحَاشِيَةٌ
 وَخَدَمٌ . فَاسْتَجِبْ لِدُعَائِي - يَارَبِّ - جَزَاءَ مَا عَبْدْتُكَ لَيْلَ نَهَارَ ،
 بِدُونِ انْقِطَاعٍ . فَلَقَدْ طَالَمَا تَقَانَيْتُ فِي الْإِخْلَاصِ وَالْخُضُوعِ لَكَ ،
 فِي صَلَوَاتِي الَّتِي أَقَمْتُهَا آثَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ .
 فَاْمُنَحْنِي خَاتَمَ الْمَلِكِ الَّذِي يُظْفِرُ صَاحِبَهُ بِكُلِّ مَا تَصْبُو إِلَيْهِ
 نَفْسُهُ ، وَتَرْغَبُ فِيهِ مِنْ لَذَائِدِ الْحَيَاةِ وَطَيِّبَاتِهَا . »

١٠ - حَدِيثُ « رَفَانَا »

فَلَمْ يَظْهَرْ لَهُ - حِينَئِذٍ - « بَرَهْمَا » : رَسُولُ الْخَيْرِ ، وَمَلَكُ
 الرَّحْمَةِ ؛ بَلْ ظَهَرَ لَهُ بَدَلًا مِنْهُ « رَفَانَا » رَسُولُ الشَّرِّ ، وَشَيْطَانُ
 الْأَذَى ، فَقَالَ لَهُ :

« أَتُرِيدُ أَنْ تُصْبِحَ « رَاجَا » ؟ فَلْيَكُنْ لَكَ مَا تُرِيدُ ، فَقَدْ أَجَبْتُ
 دُعَاءَكَ ، وَإِنِّي مُبَلِّغُكَ مُرَادَكَ ، وَمُحَقِّقُكَ لَكَ رَغْبَتَكَ ؛ وَلَكِنْ عَلَى
 شَرِيطَةٍ وَاحِدَةٍ : فَلَنْ أُمْنَحَكَ مَا تَطْلُبُ مِنْ مُلْكٍ وَاسِعٍ الْغِنَى ،
 عَرِيضِ الْجَاهِ ، إِلَّا بَعْدَ أَنْ تُفَوِّضَ لِي الْأَمْرَ فِيمَا تَمْلِكُ مِنْ حَيَوَانٍ

لَأَهْلِكَ وَأُزْهِقَ رُوحَهُ بِنَفْسِي ؛ لَأَنِّي أَحِبُّ الشَّرَّ وَالْأَذَى . »

١١ - ضَعْفُ النَّاسِكِ

فَتَرَدَّدَ النَّاسِكُ فِي قَبُولِ هَذَا الشَّرْطِ لَحْظَةً ، وَلَكِنَّ « رَفَانَا »
لَوَّحَ لَهُ بِبَرِيقِ الذَّهَبِ الْخَاطِفِ ، وَقَالَ لَهُ :
« كُلُّ هَذَا مِلْكٌ لَكَ ، مَتَى أَظْفَرْتُ نِيَّ بِمَا طَلَبْتُهُ . »
فَصَاحَ « سَامِيَّتِي » قَائِلًا ، وَالْأَلَمُ يَجْزُ فِي نَفْسِهِ :
« لَكَ مَا أَمْلِكُ مِنْ حَيَوَانٍ ، فَاصْنَعْ بِهِ مَا شِئْتَ . »

١٢ - مَلِكُ الْمُلُوكِ

وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ ، وَتَجَدَّدَتْ مَطَامِعُهُ ، وَزَادَتْ رَغْبَاتُهُ ؛ فَاتَّجَهَ
لِرَسُولِ الشَّرِّ « رَفَانَا » قَائِلًا : « أُرِيدُ أَنْ أَصْبِحَ إِمْبَرَاطُورًا . أُرِيدُ
أَنْ يَكُونَ لِي أَكْبَرُ جَيْشٍ فِي الدُّنْيَا . أُرِيدُ أَنْ يَكُونَ لِي الْأَمْرُ
وَالنَّهْيُ عَلَى جَمِيعِ النَّاسِ . أُرِيدُ أَنْ أَصْبِحَ مَلِكَ مُلُوكِ « الْهِنْدِ »
جَمِيعًا ، لَا يُنَازِعُنِي فِي سُلْطَانِي كَائِنْ كَانَ . »

فَأَجَابَهُ « رَفَانَا » : « فِي قُدْرَتِي أَنْ أَمْنَحَكَ جَمِيعَ مَا تَطْلُبُ ،
وَلَكِنْ عَلَى أَنْ تُفَوِّضَ لِي الْأَمْرَ فِي رَعِيَّتِكَ ، وَتَهَبَ لِي حَيَاةَ
شَعْبِكَ وَخَدَمِكَ ؛ لِأَعِثَ فِي الْبِلَادِ فَسَادًا ، وَأُشِيعَ فِي
جُمْهُورِهِمُ الطَّاغُوتَ . »

فَقَالَ « سَامِيَتِي » مُتَنَهِّدًا مَحْزُونًا :
« أَلَيْسَ لِي مَعْدَى وَلَا مَفْرَجٌ ، عَنْ بَذْلِ هَذِهِ التَّضَحِّيَاتِ ، لِأَفُوزَ
بِمَا أُرِيدُ ؟ »

فَأَجَابَهُ « رَفَانَا » :
« لَا شَيْءَ يَضْطَرُّكَ إِلَى بَذْلِ الْهَدَاءِ ؛ فَابْقَ - كَمَا أَنْتَ - أَمِيرًا ، وَانْظُرْ
إِلَى الْإِمْبِرَاطُورِ (مَلِكِ الْمُلُوكِ) وَمَا يَكْتَنِفُهُ (مَا يُحِيطُ بِهِ) مِنْ
أُبْهَةِ وَعَظْمَةِ وَبَهْجَةٍ ، وَلْتَمَتَّلِ نَفْسُكَ حَسْرَةً حِينَ تَرَى جِيَادَهُ
الْمُسَوَّمَةَ (خَيْلَهُ الرُّشِيقَةَ الْفَاحِشَةَ) ، وَتَشْهَدُ مَوْكِبَهُ الْحَاشِدَ ،
وَأَفْيَالَهُ الضَّخْمَةَ ، وَقَدْ وَطِئَتْكَ وَدَاسَتْكَ بِأَقْدَامِهَا ، أَوْ أَثَارَتْ فِي وَجْهِكَ
ذَرَّاتٍ مِنَ الْغُبَارِ وَرَذَاذًا مِنَ الطَّيْنِ . »
فَصَاحَ « سَامِيَتِي » : « كَلَّا ، كَلَّا ، لَا أُرِيدُ أَنْ أَقْهَرَ ، وَلَا أُحِبُّ

أُغْلِبَ أَبَدًا ؛ بَلْ أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ أَقْوَى إِنْسَانٍ فِي عَصْرِي
 أَنْ أُصْبِحَ إِمْبَرَاطُورَ « الْهِنْدِ » (مَلِكَ مُلُوكِهَا) .
 مَا دُمْتُ مُصِرًّا عَلَى رَأْيِكَ فَاصْنَعْ بِشَعْبِي مَا بَدَا لَكَ »

١٣ - مَصَائِبُ الشَّعْبِ

فَابْتَهَجَ « رَفَانَا » : رَسُولُ الشَّرِّ ، وَشَيْطَانُ الْأَذَى ، وَقَهَقَهُ ضَاحِكًا
 يَورًا بِمَا ظَفَرَ بِهِ مِنْ نَجَاحٍ وَتَوْفِيقٍ . وَمَا ارْتَقَى « سَامِيَّتِي »
 نَسَهُ الْإِمْبَرَاطُورِيُّ ، حَتَّى أَشَاعَ « رَفَانَا » فِي شَعْبِهِ الْوَتَاءَ ،
 سَرَ الطَّاغُوتِ بَيْنَهُمْ ؛ فَأَهْلَكَ النَّاسَ ، وَحَصَدَهُمْ وَخَدَانَا
 إِفَاتٍ (أَفْنَاهُمْ أَفْرَادًا وَجَمَاعَاتٍ) ، دُونَ أَنْ يُبَالِيَ « سَامِيَّتِي »
 مَهْمٌ وَمَصَارِعُهُمْ .

١٤ - مَتَاعُ الْغُرُورِ

وَهَكَذَا أُعْتَصِمَ « سَامِيَّتِي » (اِحْتَمَى) بِقَصْرِهِ الْإِمْبَرَاطُورِيُّ الْفَاحِشِ
 يَفِ (الْعَالِي) ، الَّذِي يَتَلَأَلُّ بِالذَّهَبِ الْخَالِصِ وَالْأَحْجَارِ

الْكَرِيمَةِ ، وَأَصْبَحَ إِمْبَرَاطُورًا مُسَيِّطِرًا عَلَى الْعِبَادِ ، يَهَابُهُ النَّاسُ ،
وَيُمَجِّدُ قُوَّتَهُ الْجُنُودُ ، وَيَهْتَفُونَ لَهُ مِثْلَ حَاجِرِهِمْ . وَاشْتَدَّ عُجْبُهُ
وَحِيلَاؤُهُ ، وَتَضَاعَفَ زَهْوُهُ وَكِبْرِيَائُوهُ ، وَشَغَلَتْهُ لَذَائِدُ الدُّنْيَا ،
وَأَنْسَاهُ مَتَاعُ الْفُرُورِ آلَامَ النَّاسِ وَمَصَائِبَهُمْ ، وَأَغْرَاهُ ضَعْفُهُمْ ؛
فَطَفَنِي وَتَجَبَّرَ ، وَتَمَادَى فِي ظُلْمِهِ ، بَعْدَ أَنْ حِيلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ قَدْ أَصْبَحَ
إِلَهًا وَالنَّاسُ لَهُ عَبِيدٌ .

١٥ - حُبُّ الْبَقَاءِ

وَذَا صَبَاحٍ ، فَكَّرَ فِي نَفْسِهِ مَلِيًّا (تَأَمَّلَ طَوِيلًا) ، وَقَدْ أَنْسَاهُ
حُبُّ الْحَيَاةِ كُلَّ شَيْءٍ ؛ فَقَالَ مُتَحَسِّرًا :

« وَاسْأَلَا عَلَيْكَ يَا « سَامِيَّتِي » ! إِنَّ الْمَوْتَ سَيَخْطِفُكَ كَمَا خِطَفَ
غَيْرَكَ مِنْ قَبْلُ ، وَلَنْ يُنْقِذَكَ مِنْ غَائِلَتِهِ شَيْءٌ ، وَسَتَكُونُ نِهَائِيَّتَكَ
الْفَنَاءُ ، وَتَرِدُ حَوْضَ الْمَنِيَّةِ (الْمَوْتِ) ، الَّذِي وَرَدَهُ الْأَنَاسِيُّ فِي
جَمِيعِ الْمَصُورِ .

فَكَيْفَ تُطِيقُ هَذَا الْمَصِيرَ ؟ كَيْفَ تَرْضَى لِنَفْسِكَ أَنْ تَكُونَ

مِنَ الْفَانِينَ الْهَالِكِينَ ؟ كَلَّا ، لَا يُطِيقُ هَذِهِ الْخَاتِمَةَ الْمُحْزِنَةَ
الْفَاجِعَةَ عَاقِلٌ ، وَلَا يَرْضَاهَا لِنَفْسِهِ رَاشِدٌ . »

١٦ - ثَمَنُ الْخُلُودِ

ثُمَّ صَرَخَ « سَامِيَّتِي » يَدْعُو « رَفَانَا » رَاجِيًا ضَارِعًا أَنْ يَهَبَ لَهُ
بَقَاءَ التَّابِيدِ (يَمْنَحَهُ عَيْشَ الْخُلُودِ) . فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ « رَفَانَا » ،
وَقَالَ لَهُ وَهُوَ يَقْطُبُ حَاجِبَهُ :

« مَاذَا تُرِيدُ ؟ أَلَمْ تَظْفَرْ مِنَ الْأَمَانِيِّ بِمَا لَمْ يَظْفَرْ بِهِ أَحَدٌ ؟
هَلْ بَقِيَتْ لَكَ رَغْبَةٌ لَمْ تُقْضَ بَعْدُ ؟ »

فَقَالَ « سَامِيَّتِي » : « نَعَمْ ، أُرِيدُ أَنْ تَهَبَ لِي الْخُلُودَ ! »
فَأَجَابَهُ : « إِذَنْ تُرِيدُ أَنْ تَشْرِكَ إِلَهَكَ فِي صِفَةِ الْبَقَاءِ الَّتِي تَقَرَّرَ
بِهَا ؟ هَذَا أَمْرٌ عَزِيزُ الْمَنَالِ ، بَعِيدُ الْإِدْرَاكِ .

وَلَكِنِّي أُحَقِّقُهُ لَكَ ، إِذَا قَبِلْتَ شَيْئًا وَاحِدًا ؛ وَهُوَ أَنْ تَرْضَى
— فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ — بِهَلَاكِ أَهْلِكَ وَعَشِيرَتِكَ ، وَأَنْ تَكُونَ مَصَارِعُهُمْ
عَلَى يَدَيْكَ . »

فقال « ساميتي » : « أَمَا هَذَا فَلَا سَبِيلَ إِلَيْهِ ، وَلَنْ يَكُونَ
ذَلِكَ مِنِّي أَبَدًا . »

فَأَجَابَهُ « رَفَانَا » سَاخِرًا :

« دَعْنِي — إِذَنْ — هَادِنًا ، وَلَا تُزْعِجْنِي بِبِنْدَائِكَ لِيَّائِي
مَرَّةً أُخْرَى . »

١٧ — ضَعْفُ الشَّيْخُوخَةِ

وَمَرَّتِ السَّنُونَ ، وَانْقَضَتِ الْأَعْوَامُ مُتَمَاعِبَةً ، وَظَلَّ بَطَلُ قِصَّتِنَا
« ساميتي » يُقَاوِمُ ذَلِكَ الْإِغْرَاءَ ؛ وَلَكِنَّ الشَّيْخُوخَةَ لَمْ تَلْبَثْ أَنْ
أَذْرَكَتَهُ ، تَسْعَى إِلَيْهِ بِخُطَوَاتٍ مُسْرِعَةٍ حَثِيثَةٍ . فَلَمَّا شَعَرَ بِدُنُوِّ
أَجَلِهِ (قُرْبِ مَوْتِهِ) ، وَأَحَسَّ أَنَّ شَبَحَ الْمَوْتِ يَقْتَرِبُ مِنْهُ ،
وَيَجِدُ فِي الْبَحْثِ عَنْهُ ، أَنَسَتْهُ أَنَانِيَّتُهُ (حُبُّهُ ذَاتَهُ) كُلَّ شَيْءٍ ؛
فَصَاحَ يَدْعُو « رَفَانَا » ؛ فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ يَسْأَلُهُ عَمَّا يُرِيدُ .

فَقَالَ لَهُ : « أَهْلِكَ مِنْ شَيْءٍ مِنْ عَشِيرَتِي ، وَهَيَّئِي لِي الْخُلُودَ
بَعْدَ ذَلِكَ . »

١٨ - صَوْتُ الْهَاتِفِ

وَهُنَا سَمِعَ « سَامِيَّتِي » هَاتِفًا يَهْتِفُ بِهِ مِنَ السَّمَاءِ :
 « لَقَدْ كَثُرَتْ ذُنُوبُكَ وَأَثَامُكَ ، وَامْتَلَأَ الْكَيْلُ بِخَطَايَاكَ ،
 وَاسْتَحَقَّقْتَ اللَّعْنَةَ جَزَاءَ مَا أُسْرِفْتَ فِي ضَلَالِكَ وَبَغْيِكَ . لَقَدْ كَانَ
 فِي قُدْرَتِكَ أَنْ تَعِيشَ أَسْعَدَ مَخْلُوقٍ : تَحْتَكُ الْمَهَابَةُ وَالْجَلَالُ .
 وَلَكِنَّكَ - وَقَدْ أَنْزَلْتُ مَرَّةً فِي طَرِيقِ الشَّرِّ - لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ
 تُقَاوِمَ تَيَّارَهُ الْجَارِفَ ؛ فَدَفَعْتُكَ الْخُطُوَّةَ الْأُولَى إِلَى مَا بَعْدَهَا مِنْ
 خُطُوبَاتٍ ، انْتَهَتْ بِكَ إِلَى هَذِهِ الْخَاتِمَةِ الْمُحْزِنَةِ ، فَلَمْ تَسْتَطِعْ
 الْوُقُوفَ فِي ذَلِكَ الْمُنْحَدَرِ الْهَائِلِ السَّحِيقِ . وَأَسْلَمْتُكَ غِيَّتُكَ
 وَضَلَالُكَ إِلَى مَا تَرَاهُ ، فَسَوَّلْتُ لَكَ أَنْ تَقْتَرِفَ إِثْمًا بَعْدَ إِثْمٍ ؛ فَلَمْ
 تَتَوَرَّعْ عَنِ ارْتِكَابِ كَبِيرَةٍ مَهْمَا عَظُمَتْ .

١٩ - سَاكِنُ الصَّخْرَةِ

أَتَصَبُّوْا إِلَى الْخُلُودِ نَفْسُكَ ؟ حَسَنًا . سَتَنْظَرُ بِطِلْبَتِكَ هَذِهِ ،

وَسَتَبْقَى لَكَ وَلِأُسْرَتِكَ الْحَيَاةُ أَبَدًا . وَلَكِنْ مَا دَامَ قَلْبُكَ فِي مِثْلِ
صَلَابَةِ الصَّخْرَةِ ، فَلْيَكُنْ جِسْمُكَ الْآدَمِيَّ صَخْرَةً أَيْضًا ، مِثْلَ
قَلْبِكَ . أَلَا وَلْتُمَسَّخْ مَعَ جَمِيعِ مَنْ ضَحَّيْتَ بِهِمْ مِنْ أَهْلِكَ
تَمَاثِيلَ مِنَ الْحِجَارَةِ ، وَلْيَنَامُوا جَمِيعًا فِي سَلَامٍ وَادِعِينَ أَمَّا أَنْتَ ،
فَلْتَبْقَ رُوحُكَ خَالِدَةً فِي تِمَثَالِكَ الصَّخْرِيِّ ؛ لِتَكُونَ مِثْلًا نَافِعًا ،
وَعِظَةً نَاطِقَةً لِمَنْ يَقْتَفِي آثَارَكَ مِنَ الْبَاغِينَ الظَّالِمِينَ ، وَيَرْتَضَى
سُنَّتَكَ (يَخْتَارُ طَرِيقَتَكَ) مِنَ الْعَادِينَ (الْمُعْتَدِينَ) . »

خَاتِمَةُ الْقِصَّةِ

فَقَالَ مَلِكُ « بِنَارِسَ » : « مَا أَعْجَبَ مَا رَوَيْتَ - أَيُّهَا الْحَكِيمُ
الْعَظِيمُ - فَإِنَّ مَا قَصَصْتَهُ عَلَيْنَا مِنْ شَرِّهِ « سَامِتِي » وَأَنَا نَبِيَّتُهُ ،
وَتَقَانِيهِ فِي الْإِقْصَالِ عَلَى لَذَائِدِ الدُّنْيَا الْخَادِعَةِ ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ
النَّقَائِصِ الْمَرْدُودَةِ : لَا يَقِلُّ غَرَابَةُ عَمَّا حَدَّثْتُكُمْ بِهِ مِنْ وَفَاءِ
« مَلِكِ الدَّوْحَةِ » ، وَإِنْكَارِهِ ذَاتِهِ ، وَجُودِهِ بِنَفْسِهِ ، وَمَا إِلَى هَذَا مِنْ
الْمَزَايَا النَّبِيلَةِ . »

لَقَدْ رَأَيْنَا مِنْ شَنَاعَةِ « سَاكِنِ الصَّخْرَةِ » وَفَعَالِهِ الذَّمِيمِ ، بِقَدْرِ
 مَا عَرَفْنَا مِنْ نِبَالَةِ « سَاكِنِ الدَّوْحَةِ » وَخُلُقِهِ الْكَرِيمِ .
 وَإِنَّ فِي هَاتَيْنِ الْقِصَّتَيْنِ - عَلَى وَجَارَتِهِمَا (بِرَغْمِ اخْتِصَارِهِمَا) ،
 وَأُخْتِلَافِ قَصْدَيْهِمَا ، وَتَبَايُنِ غَايَتَيْهِمَا - لَدَرْسًا يَلِيغًا نَافِعًا لِأُولِي
 الْأَلْبَابِ ، وَحِكْمَةً سَامِيَةً لِمَنْ وَعَى ، وَآيَةً نَاطِقَةً لِمَنْ أَعْتَبَرَ .

مكتبة الكيلاني

مَجْمُوعَاتُهَا : تُسَايِرُ التَّلْمِيذَ فِي نَحْوِ مِائَةِ وَخَمْسِينَ قِصَّةً ، رَائِعَةَ
الصُّورِ ، بَدِيعَةَ الْإِخْرَاجِ ، مُتَدَرِّجَةً بِهِ مِنْ رِيَاضِ الْأَطْفَالِ إِلَى خِتَامِ
التَّعْلِيمِ الثَّانَوِيِّ . ثُمَّ تُسَلِّمُهُ إِلَى مَكْتَبَةِ الْكِيلَانِيِّ لِلشَّبَابِ .
مَادَّتُهَا : تَقْوَمُ الْخُلُقَ ، وَتُرَبِّي الذِّهْنَ ، وَتُعَلِّمُ الْأَدَبَ .
فَنِّهَا : يَشْوِقُ الْقَارِئَ وَيُمَتِّعُهُ ، وَيُحِبُّ الْكِتَابَ إِلَيْهِ .
لُغَتُهَا : تُنَمِّي مَلَكَهَ التَّعْبِيرِ ، وَتَطْبَعُ اللِّسَانَ عَلَى فَصِيحِ الْبَيَانِ .
ثَوْرَةٌ رَشِيدَةٌ ، أَجْمَعَ عَلَى تَأْيِيدِهَا وَزَرَءِ الْمَعَارِفِ وَزُعَمَاءِ التَّعْلِيمِ
وَقَادَةَ الرَّأْيِ فِي الشَّرْقِ ، وَكِبَارُ الْمُسْتَشْرِقِينَ وَأَعْلَامُ التَّرْبِيَةِ فِي الْغَرْبِ .
أَوَّلُ مَكْتَبَةٍ عَرَبِيَّةٍ عُنِيَتْ بِنَشِئَةِ الطِّفْلِ عَلَى أَحَدَثِ أُسُسِ
التَّرْبِيَةِ الصَّحِيحَةِ . تَوَالَتْ طَبَعَاتُهَا الْعَرَبِيَّةُ ؛ فَتَقَفَّ بِهَا الْجِيلُ
الْجَدِيدُ فِي بِلَادِ الْعُرُوبَةِ ، وَلَمْ يَخُلْ مِنْهَا بَيْتٌ عَرَبِيٌّ .
تُرْجِمَتْ إِلَى أَكْثَرِ اللُّغَاتِ الشَّرْقِيَّةِ وَبَعْضِ اللُّغَاتِ الْغَرْبِيَّةِ .
مَدْرَسَةُ حُرَّةٍ ، إِذَا عَرَفَهَا التَّلْمِيذُ ، سَعَى إِلَيْهَا بِلا تَرْغِيبٍ وَلَا تَرْهِيْبٍ .
كَانَتْ أَكْبَرَ أُمْنِيَّةِ الْآبَاءِ ، وَهِيَ الْيَوْمَ أَشْهَى غِذَاءٍ ثَقَافِيٍّ لِلْأَبْنَاءِ .

١٩٩٣/٣٤٧٤	رقم الإبداع
ISBN 977-02-4033-8	الترقيم الدولي

٧/٩٣/١٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

مكتبة الأطفال

بصلم
كامل الدرويش

أساطير العالم

- ١ الملك ميداس .
- ٢ في بلاد المجانب .
- ٣ القصر الهندى .
- ٤ قصاص الأثر .
- ٥ بطل آتينا .
- ٦ القليل الأبيض .

قصص علمية

- ١ أصدقاء الربيع .
- ٢ زهرة البرسيم .
- ٣ فى الاصطبل .
- ٤ جبارة الغابة .
- ٥ أسرة الساجيب .
- ٦ أم سند وأم هند .
- ٧ الصديقتان .
- ٨ أم مازن .
- ٩ العنكب الحزين .
- ١٠ النحلة العاملة .

أشهر القصص

- ١ جلفر فى بلاد الأقزام .
- ٢ فى بلاد الماقة .
- ٣ فى الجزيرة الطيار .
- ٤ فى جزيرة الجياد .
- ٥ روبنسون كروزو .

قصص عربية

- ١ حى بن يقطان .
- ٢ ابن

قصص تمثيلية

- ١ الملك النجار .

قصص فلكهية

- ١ عمارة .
- ٢ الأرنيب الذكى .
- ٣ غفريت الصوص .
- ٤ نعمان .
- ٥ العرندس .
- ٦ أبو الحسن .
- ٧ حذاء الطنبورى .
- ٨ بنت الصباغ .

قصص من ألف ليلة

- ١ بابا عبد الله والدرويش .
- ٢ أبو صير وأبو قير .
- ٣ على بابا .
- ٤ عبد الله البرى .
- ٥ الملك عجيب .
- ٦ خسرو شاه .
- ٧ السندباد البحرى .
- ٨ علاء الدين .
- ٩ تاجر بغداد .
- ١٠ مدينة النحاس .

قصص هندية

- ١ الشيخ الهندى .
- ٢ الوزير السجين .
- ٣ الأميرة القاسية .
- ٤ غاتم الذكى .
- ٥ شبكة الموت .
- ٦ فى غابة الشياطين .
- ٧ صراع الأخوين .

قصص شكير

- ١ العاصفة .
- ٢ تاجر البندقية .
- ٣ دلمس قيصر .
- ٤ الملك لير .

Bibliotheca Alexandrina



0287819



٢١٠٦٠٩

٢٠٠٠